

أوراق بحثية

تجارة الفحم بين الاقتصاد والمناخ والأمن الإقليمي.. الصومال أنموذجاً



محسن حسن

أغسطس 2019



شكّلت تجارة الفحم العالمية في الآونة الأخيرة بعض الإشكاليات المركبة والمعقدة التي تمّاسـت في مجلـلها مع قضايا المناخ والاقتصاد والإرهاب.

من الناحية المناخية، باتت تمثل هذه التجارة أخطاراً عـدة على النواحي البيئية والصحـية لدى البلد المنتـجة؛ إذ أن إنتاج الفـحم أصبح يـسـهم إـسـهـاماً فـاعـلاً في تـضـخيـم ظـاهـرـتـى التـلوـثـ والـاحـتبـاسـ الحرـارـيـ، العـالـمـيـتـينـ، باعتـبارـ ما تمـثلـهـ هـذـهـ المـادـةـ منـ مـصـدرـ مـباـشـرـ لأـكـبـرـ مـلـوـثـاتـ الـبـيـئةـ وـالـمـنـاخـ إـنـتـاجـاًـ وـاسـتـهـلاـكاًـ؛ـ فـبـحـسـبـ المـصـادرـ المـخـصـصةـ "ـيـتـسـبـبـ الفـحمـ فـيـ زـيـادـةـ الـانـبعـاثـاتـ الـحرـارـيـةـ بـنـسـبـةـ كـبـيرـةـ عـبـرـ غـازـاتـ تـشـمـلـ أـكـاسـيدـ الـكـربـونـ،ـ الـنيـتروـجينـ،ـ وـالـكـبـيرـيتـ،ـ الـتيـ تـتـسـبـبـ فـيـ أـضـرـارـ بـيـئـيـةـ مـخـلـفـةـ،ـ كـمـاـ يـعـتـبـرـ الفـحمـ مـنـ أـشـرـسـ مـسـبـبـاتـ الـأـمـرـاـضـ الـخـطـيرـةـ لـلـإـنـسـانـ عـنـ طـرـيقـ اـسـتـنـشـاقـ غـبـارـ وـأـتـرـبةـ الفـحمـ وـمـاـ يـنـتـجـ عـنـ حـرـقـهـ مـنـ جـسـيـمـاتـ مـتـاهـيـةـ الصـغـرـ تـخـترـقـ جـدارـ الرـئـتينـ وـتـتـسـبـبـ فـيـ تـصـلـبـ الشـرـاـيـنـ وـالـأـوـرـاـمـ السـرـطـانـيـةـ،ـ هـذـاـ بـخـلـافـ الـعـنـاصـرـ الـثـقـيلـةـ كـالـزـئـبـقـ وـالـرـصـاصـ وـالـزـرـنيـخـ"¹

ورغم الأضرار الناجمة عن إنتاج واستهلاك الفـحمـ فيـ الـوقـتـ الـراـهنـ،ـ إـلـاـ أـنـ اـرـتـبـاطـ مـنـظـومـةـ الـفـحمـ وـكـوـنـهـاـ تمـثلـ مـصـدـراًـ مـنـ مـصـادـرـ الـاـقـتصـادـ الـمـلـيـ وـالـوـطـنـيـ لـدـىـ الدـوـلـ الـمـنـتـجـةـ،ـ يـجـعـلـ مـهـمـةـ

¹ انظر: طنطاوي، محمد محمد، الفـحمـ صـعـوبـاتـ وـتـحـديـاتـ، وـرـقـةـ بـحـثـيـةـ، مـنـشـورـاتـ وـرـقـةـ الـدـولـةـ لـشـئـونـ الـبـيـئـةـ، مصرـ، صـ4ـ، مـتـاحـ عـلـىـ: <http://www.aun.edu.eg/arabic/society/Seminars/Coal.pdf> ، (بتـصـرـفـ يـسـيرـ)

الاستغناء عنه وتحييده، أمراً صعباً بالنسبة للدوائر الصحية والبيئية في العالم، وذلك رغم وجود بدائل أقل كلفة كالغاز الطبيعي على سبيل المثال؛ فرغم البنود والمقترحات التي خرجت بها عشرات الدول عبر مؤتمر المناخ المنعقد في مدينة(بون)الألمانية عام 2017، والتي تقنن للتخلص المتدرج من إنتاج واستهلاك الفحم بحلول عام 2030، إلا أن أقطاب صناعة وإنتاج الفحم في العالم، كانوا بعيدين عن حيز الالتزام بتلك البنود؛ ومن ثم، فقد ظلت نسبة إنتاج الطاقة الكهربائية المولدة من الفحم على المستوى العالمي مرتفعة؛ إذ يتم إنتاج 40 % من كهرباء العالم عبر الفحم، وفق تقديرات العام 2016، بالتزامن مع استمرار المنتجين العالميين للفحم، في ضخ إنتاجهم؛ حيث تأتي الصين على رأس القائمة بحجم إنتاج يقدر بـ 3242 مليون طن من الفحم (44.6% من إجمالي الإنتاج العالمي)، ثم الهند بحجم إنتاج يبلغ 708 مليون طن (9.7% من الإنتاج العالمي)، ثم الولايات المتحدة الأمريكية في المركز الثالث بحجم إنتاج يبلغ 672 مليون طن (9.2% من الإنتاج العالمي)، ثم على الترتيب: استراليا 503 مليون طن (6.9%)، إندونيسيا 460 مليون طن (6.3%)، روسيا 365 مليون طن (5.0%)، جنوب إفريقيا 257 مليون طن (3.5%)، ألمانيا 176 مليون طن (2.4%)، بولندا 131 مليون طن (1.8%)، كازاخستان 98 مليون طن (1.3%)، ثم

بافي دول العالم 657 مليون طن، وبنسبة 9.3% من حجم إنتاج الفحم عالميا²

ومع دخول التجارة العالمية في نفق الصراع المحلي والإقليمي والدولي، وتماسها مع التكتلات المتصارعة والمتضادة في التوجهات والأيديولوجيات والأهداف، دخلت تجارة الفحم على الخط، بحيث أصبحت هذه النوعية من التجارة تشكل نسبة كبيرة من حركة التهريب عبر الحدود، وخاصة من قبل الجماعات الحدودية المسلحة، والتي باتت مهتمة بتوظيف تجارة الفحم في تعظيم عوائدها المالية والاقتصادية عبر التهريب الحدودي، لضمان امتلاك القوة الاقتصادية والمالية المحركة للأهداف الخاصة بهذه الجماعات، وهو ما وجدت فيه بعض الدول على المستوى الإقليمي والدولي، فرصة سانحة لعقد تحالفات حدودية واستراتيجية واقتصادية مع تلك الجماعات، لتحقيق مصالح مشابهة، وفي الحقيقة لا يمكن اعتبار هذه التركيبة المصالحية قاصرة على تجارة الفحم فقط؛ إذ يتعدى الأمر حدود هذه التجارة، ليستغرق كافة النواحي التجارية الخاصة بالأخياء البرية؛" ففي المجتمع الدولي، هناك الآن إقرار متزايد بأن قضية الاتجار غير القانوني بالأخياء البرية قد وصلت إلى نسبة عالمية كبيرة؛ إذ ينطوي الاتجار غير القانوني بالأخياء البرية

² راجع تقرير موقع(أرقام) السعودي تحت عنوان: أكبر الدول المنتجة للفحم وأكبر شركات التنقيب عنه، بتاريخ 25/5/2018، متاح على الرابط: <https://www.argaam.com/ar/article/articledetail/id/550447> (بتصرف)

والجرائم البيئية على نطاق عريض من النباتات والأحياء عبر جميع القارات، ويقدر قيمتها بنحو 70 — 213 مليار دولار سنوياً، وهذا الاتجار غير القانوني بالموارد الطبيعية، يحرم الاقتصادات النامية من مليارات الدولارات من العوائد المفقودة وفرص التنمية الضائعة، في حين تستفيد منه عصابات إجرامية صغيرة نسبياً³

الفحم الإفريقي

والفحم في القارة الإفريقية، مثله، مثل الفحم في باقي قارات العالم، يدخل ضمن الاهتمامات الاقتصادية والطاقة للدول، ورغم تفوق الصين والهند والولايات المتحدة وإندونيسيا في إنتاج نوعي من الفحم، إلا أن الفحم الإفريقي يحتل أولوية وأهمية خاصة لدى العديد من المستوردين الدوليين والإقليميين؛ فعلى سبيل المثال، يفضل اللبنانيون استيراد الفحم الإفريقي على اللجوء لشراء الفحم المنتج محلياً، وذلك لاعتبارات خاصة بالجودة والسعر ، فوق تصريحات بعضهم: "يبلغ سعر طن الفحم اللبناني من نوع(سنديان) نحو ألف دولار أمريكي، بينما سعر طن الفحم الصومالي من نفس النوع(سنديان) لا يتجاوز 600 دولار ، كما أن الفحم الصومالي أقوى

³ انظر: مقدمة(آشيم شتيرز) وكيل الأمين العام للأمم المتحدة والمدير التنفيذي لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة، تقرير(أزمة الجريمة البيئية)، منشورات برنامج الأمم المتحدة للبيئة، نيروبي/كينيا، وثيقة 137، ص 3، متاح على:

https://gridarendal-website-live.s3.amazonaws.com/production/documents/:s_document/137/original/RRACrimecrisis_flyer_AR_Web.pdf?1483646682، (بتصرف يسیر)

وأُثقل من الفحم الصناعي المستورد من دول أخرى، إلى جانب أنه الأجدود على الإطلاق⁴

ويتضح من واقع منظومة تعدين الفحم بالقارة الإفريقية، أن الإنتاج مرتبط ارتباطاً أساسياً ومصيرياً بالرغبة في الحصول على الطاقة، وخاصة الطاقة الكهربائية، ولكن ضريبة الحصول على هذه الطاقة في القارة الإفريقية، تبدو باهظة وسلبية من عدة نواح واعتبارات؛ فلو نظرنا إلى دولة جنوب أفريقيا (النموذج الإفريقي في إنتاج الفحم) والتي تأتي في مركز متقدم عالمياً من حيث إنتاج هذا الحجر، نجد أنها تعاني معاناة شديدة ومركبة نتيجة اضطرارها لتفعيل منظومة إنتاج الفحم للوفاء بمتطلباتها من الطاقة، وأحد أوجه هذه المعاناة تتمثل في أن "منطقة (مبومالانغا)" التي يتركز إنتاج قطاع الطاقة الجنوبي إفريقي فيها، يعد الفحم هناك مسؤولاً عن آلاف الوفيات جراء أمراض تنفسية وأمراض قلب وأوعية دموية، فضلاً عن صعود ملحوظ في حالات السرطان ومضاعفات في نمو الأجنة، كما أن صناعة الفحم تؤدي إلى سحب مصادر المياه النادرة من المجتمعات المجاورة، تاركة وراءها مخلفاتها السامة المعروفة

⁴ راجع: نبيال الحاييك، استيراد الفحم بديل بيئي وتجاري... والصومالي "الأجدود"، صحيفة الأخبار اللبنانية، الخميس 10 آيار 2007، متاح على: https://al-akhbar.com/Archive_Local_News/193070، (بتصرف يسیر)

—:(صرف المناجم الحمضية) القادرة على تسميم المياه الجوفية لعقود أو قرون تالية بعد إغلاق المناجم⁵

ويعد التوسيع الإفريقي المستقبلي في مجال إنتاج وتجارة الفحم من قبيل المسلمات، رغم كل تلك الأضرار، وخاصة بعد انحسار الإنتاج والتجارة والاستهلاك المتوقع في الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية، وهو ما سيؤدي بدوره إلى هذا التوسيع المشار إليه، على غرار تجارة التبغ العالمية وما حدث فيها من تحولات في اتجاه القارة الإفريقية بعد الانحسار والتراجع في أمريكا وأوروبا، ولدينا مؤشرات ربما تؤكد التوقعات بشأن التوسيع في الاعتماد الإفريقي على إنتاج الفحم؛ ففي جنوب القارة الإفريقية على سبيل المثال "تدخل بتسوانا وملاوي و MOZAMBIQUE وجنوب أفريقيا وزامبيا وزيمبابوي في صفقات مع مقاولين مستقلين لبناء منشآت طاقة تعمل بالفحم، كما تعمل نيجيريا وكينيا — وهما من أكبر الاقتصادات الإفريقية — حالياً على فتح منشآت طاقة تعمل بالفحم للمرة الأولى في تاريخ كل منها، وفي الوقت الذي تتحرك فيه أمريكا وأوروبا سريعا نحو الاعتماد على الطاقة المتجدددة داخلياً، فإن مؤسسات التمويل

⁵ انظر: غريغوري ريفلينون، كريزنا غوميز، مناجم أعمق: الآثار السلبية لصناعة الفحم في الجنوب العالمي على حقوق الإنسان، تقرير مركز القانون والعدالة والمجتمع(Dejusticia)، مركز موارد قطاع الأعمال وحقوق الإنسان، نوفمبر/تشرين الثاني 2015، ص 6، متاح على: <https://www.business-humanrights.org/sites/default/files/documents/Digging-Deeper-AR.pdf> (بتصرف يسir)

الأمريكية والأوربية وشركات القطاع الخاص بها تستثمر في أنشطة الفحم بالخارج وخاصة في إفريقيا⁶

ومما يزيد من مخاطر إنتاج الفحم والتجارة فيه عبر دول القارة الإفريقية، أن المسألة متعلقة ومرتبطة بطبيعة الزيادة السكانية المطردة في هذه القارة وفي بعض المناطق المحيطة أيضاً، الأمر الذي يعني اتساع نطاق الأنشطة السكانية العاملة في مجال قطع الأخشاب وصناعة وإنتاج الفحم، وفي هذا السياق، ليس غريباً أن تؤكد بعض المصادر ازدياد مردود العوائد المالية والاقتصادية لهذه الأنشطة على حساب أنشطة أخرى عاملة في إنتاج المواد المخدرة كالكوكايين والهيرويين مثلاً؛ إذ تؤكد هذه المصادر أنه "مع الأنماط الحالية في التوسيع الحضري في البلدان الإفريقية، ومع الزيادة المتوقعة في السكان والتي تبلغ 1.1 مليار نسمة إضافية في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى بحلول عام 2050، فإنه من المنتظر أن يتضاعف الطلب على الفحم ثلاث مرات تقريباً على مدار العقود الثلاثة القادمة، وسوف يؤدي هذا إلى آثار سلبية شديدة مثل إزالة الغابات وزيادة نسبة الانبعاثات الضارة، وتكتشف معروضات الإنترن트 عن حوالي 1.900 تاجر للفحم في أفريقيا وحدها، ويصدر 300 من هؤلاء على الأقل شحنات تتراوح بين 10 – 20 طن من الفحم كحد أدنى للطلب، وتجاوز طلباتهم اليومية إجمالي الصادرات

⁶ المصدر السابق نفسه، ص 10 (بتصرف)

السنوية الرسمية لبعض البلدان؛ فبالنسبة لشرق ووسط وغرب أفريقيا، يقدر صافي الأرباح من التعامل في الفحم غير المشروع وفرض الضرائب عليه ما يقدر بنحو 2.4 - 9 مليار دولار أمريكي، مقارنة بالهيروين والكوكايين في المنطقة اللذان تبلغ قيمتهما السوقية 2.65 مليار دولار⁷

ومن الغريب حقاً أنه في ظل التوسيع الجاري والمتوقع في إنتاج الفحم على مستوى القارة الإفريقية، إلا أنه لا يمكن إدراج اقتصاديات الفحم ضمن السياقات المالية والتجارية الداعمة للاقتصادات الوطنية الإفريقية، بل على العكس، يمكن اعتبار أنشطة إنتاج الفحم، ضمن الأنشطة المعوقة لتلك الاقتصادات، وذلك بالنظر إلى جملة الاعتبارات التالية:

﴿ في الوقت الذي يدر فيه الفحم وتجارته بعض العوائد المالية على القارة الإفريقية، فإنه في الوقت ذاته يتسبب عبر تداعياته الصحية الوخيمة في زيادة كلفة المرض في هذه القارة، ووفق أحد التقارير الصادرة عن منظمة الصحة العالمية، خلال شهر مارس 2019، فإن القارة الإفريقية تتكلف سنوياً 2.4 تريليون دولار نتيجة الأمراض غير المباشرة، كما أن تجارة الفحم تعوق خطط التنمية المستدامة في القارة وتعطل تحقيق أهدافها

⁷ انظر: تقرير(أزمة الجريمة البيئية)، منشورات برنامج الأمم المتحدة للبيئة، نيروبي/كينيا، وثيقة 137، ص 6، مصدر سابق(يتصرف بيسير)

المستقبلية حتى العام 2030، الأمر يحرم المنظومة الصحية من خفض ما يقرب من 50% من الأضرار المالية الناجمة عن الأمراض المشار إليها⁸

شكل تجارة الفحم جملة من المخاطر الحقيقة على مستوى التنمية في البلدان الإفريقية، وخاصة ذات الاقتصادات الضعيفة والمتواضعة، وعلى رأس هذه المخاطر ما يتعلق بمنظومة الأمن الغذائي وتأمين الأقوات للطبقات الفقيرة ولعموم السكان؛ إذ أنه بجانب ما يسببه إنتاج الفحم من تسميم المياه في مناطق المناجم، فإن توليد الطاقة بالفحم، يحتاج إلى كميات هائلة من المياه، وليس أدل على ذلك من أن إحدى الشركات العاملة في مجال توليد الطاقة بالفحم، وهي شركة(إسكوم) في جنوب أفريقيا، تستهلك عشرة آلاف لتر من المياه في كل ثانية واحدة، ليس هذا فحسب، بل إن معظم الشركات والمؤسسات العاملة في هذا المجال، تتحايل على القوانين من أجل الاستئثار بأكبر قدر من الدعم المائي والاستحواذ على المياه، الأمر الذي يعني التأثير السلبي المباشر على القطاع الزراعي من جهة، وعلى حقوق المواطنين المائية من جهة أخرى، وهو ما يحدث إلى الدرجة التي صرحت بها بعض الأفارقة قائلاً: "يأخذ مستخرجو الفحم

⁸ راجع تقرير(الخليج أونلاين) بتاريخ 29/3/2019 على الرابط: <http://khaleej.online/6ZrZdn> ،(بتصرف)

المياه التي يحتاجها مجتمعنا، يأخذون مياه الشرب والمياه التي
تحتاجها للمحاصيل ومياه الطبيعة⁹

﴿ تتضافر التداعيات السلبية الناجمة عن إنتاج الفحم وتوليد
الطاقة من خلاله، إلى جانب التوسيع في تجارتة، لتمضى
عن مجموعة مشكلات نوعية تهدد الاستقرار الديموغرافي
والأمني والسياسي للمجتمعات والأنظمة الإفريقية؛ فمن الناحية
الديموغرافية، تؤدي منظومة الفحم إلى توسيع معاناة شرائح
بشرية على حساب شرائح أخرى، وهنا تتحدث المصادر عن
معاناة مركبة ومعقدة للمرأة الإفريقية قياساً بالرجل؛ إذ تحمل
معاناة أبنائها من التداعيات الصحية المدمرة جراء تلك
المنظومة، هذا إلى جانب ما يشكله الفحم من إفقار معتاد
ومألف داخل المناطق التي يتواجد بها المناجم؛ فغالباً ما يتم
تهميش المناطق المحيطة بمناجم الفحم، وفي الوقت الذي يتم
إمداد مناطق بعيدة بمنافع الفحم من الكهرباء وغيرها، يتم
بالتوازي إهمال المناطق المحيطة بمراكيز الاستخراج، ما يؤدي
في النهاية إلى توطين الطبقة الاجتماعية، وصناعة بؤر تمرد
شعبي على الأنظمة، وهو بدوره ما يشكل على المدى البعيد
حالة من عدم الاستقرار الأمني والسياسي في الدول الإفريقية¹⁰﴾

⁹ انظر: غريغوري ريفلينون، كريزنا غوميز، مناجم أعمق: الآثار السلبية لصناعة الفحم في الجنوب العالمي على حقوق الإنسان، تقرير مركز القانون والعدالة والمجتمع(Dejusticia)، مصدر سابق، ص ص ، 21 ، 22

¹⁰ المصدر السابق نفسه، صفحات متعددة، (بتصرف)

وخلال هذه المقدمة، إن منظومة الفحص في القارة الإفريقية، ليست مجديّة من الناحيّة الاقتصاديّة، كما قد يبدو للبعض، كما أنها تشكّل تهديداً صريحاً لمنظومات الأمان الغذائي ومنظومات المياه إلى جانب المنظومات البشريّة والسكانيّة والصحيّة، ما يعني أن عوائد الفحص الاقتصاديّة والماليّة، لا تشكّل إضافات معتبرة للاقتصادات الوطنيّة في البلدان الإفريقية، إذا ما قيسّت بحجم الأضرار الناجمة عن أنشطة الإنتاج والتوليد والتجارة.

فحم الصومال

¹¹ انظر: النداوي، مهند عبد الواحد، الاتحاد الأفريقي وتسوية المنازعات.. دراسة حالة الصومال، طبعة دار الشروق المصرية، 2015، ص 80،(بتصرف يسir)

يمكنا استعراض وضعيات تجارة وإنتاج الفحم في الصومال، وما يرتبط بها من تداعيات وإشكاليات، من خلال نقاط العرض التالية:

▪ **الطاقة الإنتاجية:** وفق تقديرات برنامج الأمم المتحدة الإنمائي

في الصومال، يتم بشكل سنوي إنتاج كميات كبيرة من الفحم تقدر بحوالي ربع مليون طن، وهو ما يستلزم قطع ما يزيد على 4.4 ملايين شجرة، وتجريف 72900 هكتار من الأرضي¹² ومن جهة أخرى، فإن الصومال" تعتمد على الحطب والفحm والنفط المستورد لإنتاج الوقود وتلبية احتياجاتها من الطاقة ويمثل ذلك 82% من إجمالي استهلاك الطاقة في البلاد"¹³ ويتبع تطور إنتاج الفحم في الصومال، خلال ما يقرب من عقدين متواصلاً إلى الآن، نجد أن البلاد أنتجت 112.000 طن عام 2000، وخلال خمس سنوات ارتفع الإنتاج ليصل 115.000 طن خلال عام 2015، علماً أن 80% من هذه الكميات المنتجة من الفحم النباتي، كانت تصدر إلى دول الخليج العربي، في حين يتم استخدام الـ 20% المتبقية من الحصة الإنتاجية للاستهلاك المحلي

¹² راجع قيم وتقديرات برنامج الأمم المتحدة الإنمائي في الصومال، بتاريخ 17/4/2013، على الرابط: <http://www.arabstates.undp.org/content/rbas/ar/home/presscenter/pressreleases/2013/04/17/breaking-the-cycle-of-charcoal-production-in-somalia.html> ، (بتصريف)

¹³ راجع: المركز الإقليمي للطاقة المتجدد وكفاءة الطاقة، توبيب(الصومال)، متاح على: <http://www.rcreee.org/ar> ، مع البحث بالتبوبب المذكور(بتصريف يسیر)

والداخلي¹⁴ وبصفة عامة، لا يمكن إدراج الصومال ضمن الدول المتقدمة في إنتاج وتصدير الفحم، نظراً لضعف البيانات والإحصائيات الموثوقة بهذا الخصوص.

▪ **فحم للمعيشة:** ارتبطت أنشطة إنتاج الفحم الخشبي والنباتي في الصومال بطبيعة الحياة اليومية الفقيرة في العديد من الأحياء والمناطق؛ ففي ظل عدم انتشار ثقافة استخدام غاز الطهي، يعتمد أغلب سكان الصومال على الفحم، سواء للتدفئة أو للطهي، كما أن الفحم بالنسبة لبعض الشرائح السكانية في البلاد، يمثل مصدر الرزق الوحيد عبر قطع الأخشاب وصناعة الفحم النباتي من خلالها، وتتأرجح أسعار الفحم المتداول محلياً بين الصوماليين، تبعاً لحركة العرض والطلب؛ إذ يرتفع السعر غالباً في مواسم سقوط الأمطار نظراً لصعوبة إعداده وتجهيزه في تلك الفترة، وحالياً تعاني أسواق الفحم الداخلية في البلاد حالة من الركود، وخاصة في أسواق العاصمة مقديشو، نتيجة الارتفاع المفاجيء للأسعار بسبب حالة الاستهانة الأمني المفترضة حكومياً من جهة، وأيضاً بسبب تضييق جماعة الشباب على قاطعي الأخشاب في المناطق الواقعة تحت سيطرتها من جهة أخرى؛ وعلى سبيل المثال تسود حالة من الركود في سوق(بيرتا) الواقع في

¹⁴ انظر: النداوي، مهند عبد الواحد، الاتحاد الأفريقي وتسوية المنازعات...، مصدر سابق، ص 80 (بتصرف)

حي(وابري) بالعاصمة مقديشو، أحد اهم أسواق الفحم الخشبي، نتيجة التضييقات الأمنية، والتي رفعت سعر فحم الطهي (وفق تقديرات الاستهلاك اليومي) من 6 آلاف شلن صومالي(0.25 دولار)، إلى 12 ألف شلن(0.5 دولار يومياً)، الأمر الذي دفع الأهالي إلى شراء أنواع رديئة من الفحم لتحقيق كفايتهم من الاستهلاك اليومي المعتاد، وفي ظل تطبيق العاصمة مقديشو أمنياً، جنباً إلى جنب، مع قيام جماعة الشباب المتشددة، بحرق ما يقرب من 15 شاحنة محملة بالفحم الخشبي عقاباً للتجار جراء التعدي على مناطق سيطرتها، وبسبب تكرار مثل هذه المواقف، تباينت أسعار الفحم؛ بحيث يدفع الصوماليين 384 ألف شلن صومالي(16 دولاراً) ثمناً لكيس الفحم، وبزيادة تبلغ الضعف تقريباً قياساً بأسعار سابقة¹⁵

▪ **فحم للتجارة والتصدير:** وفي حقيقة الأمر، فإن تباين أسعار الفحم الصومالي وارتفاع أسعاره مؤخراً، لم تمنع من رواج تجارة الفحم، ومن كونها تجارة رابحة لدى الصوماليين؛ إذ أنه "رغم حظر الحكومة الصومالية الفيدرالية التصدير غير القانوني للفحم، وفق قرار مجلس الأمن الدولي لعام 2012، بسبب تأثيره المدمر على البيئة، لكن تجارة الفحم لا تزال

¹⁵ راجع: نور جيدي، (تردي الأمن يلهب أسعار الفحم)، صحيفة الأناضول التركية، بتاريخ 2019/4/23، متاح على: <https://www.aa.com.tr/ar> ، مع البحث بالعنوان المذكور(بتصرفي)

مربيحة في الداخل والخارج¹⁶ ولعل ما يؤكد هذا الرواج هو ما تتناقله بعض الإحصائيات الرسمية لوزارة الخزانة الصومالية، والتي تؤكد "أن إيرادات الفحم تعادل 20 في المئة من صادرات الصومال، نظراً لاحتراف الكثير من السكان لمهنة قطع الأشجار ثم حرقها جزئياً وتحويلها إلى فحم نباتي لأغراض الاستهلاك المحلي والتصدير"¹⁷ وقد تداولت بعض التقارير الدولية والإقليمية إحصائيات علنية وسرية عن حجم التجارة الدولية في الفحم الصومالي، ومن ذلك ما تناولته تقارير منسوبة لمجموعة المراقبة الصومالية/الإريترية¹⁸ تؤكد وجود حالة حراك تجاري لتصدير الفحم في جنوب الصومال، وتحديداً عبر ميناء كيسمايو وبراوي، خلال الفترة من يونيو 2013 ومايو 2014، وأن ذلك كان من خلال ما يزيد على 160 سفينة للشحن والتصدير، وهو ما قدرته تقارير أخرى سرية بأكثر من 250 مليون دولار خلال الفترة المذكورة¹⁹ وقد أكدت تقديرات خاصة بالأمم المتحدة أن العام 2017 شهد

¹⁶ المصدر السابق نفسه

¹⁷ راجع: إدريس، عبد الرحمن، الصومال يعلن حرباً على صناعة الفحم حفاظاً على البيئة، تقرير شبكة الحياة الاجتماعية ، بتاريخ الخميس 4 أكتوبر 2018، متاح على: <http://www.hayatweb.com/article/279541> ، (بتصريح يسير)

¹⁸ مجموعة أمنية مسؤولة عن مباشرة تطبيق العقوبات الدولية المفروضة من الأمم المتحدة ومجلس الأمن على الدولتين

¹⁹ راجع تقرير(نون بوست) على الرابط: <https://www.noonpost.com/content/3955> ، (بتصريح)

إنتاج 3,6 مليون كيس من الفحم المخصص للتصدير في الصومال²⁰

▪ **فحم للتهريب:** في ظل الأوضاع الصومالية المعقدة من الناحية الأمنية، وفي إطار الحظر المفروض على البلاد، والذي يجرم تصدير واستيراد الفحم الصومالي منذ القرار الأممي بهذا الشأن عام 2012، فإنه من الصعب الجزم بأن الصومال يحقق الاستفادة الطبيعية والمنطقية للتجارة في الفحم، رغم الأضرار الكبيرة الناجمة عن الإنتاج والاستهلاك؛ إذ تؤكد معظم التقارير والإحصاءات المتعلقة بهذه النوعية من التجارة، أن العوائد المالية والاقتصادية الكبرى من وراء تجارة الفحم وإنما ينبع في البلاد، تصب في جيوب جماعات العنف المسلح، وعلى رأسها جماعة الشباب المتشددة؛ فبحسب تقارير موثوقة " يأتي المصدر الرئيسي لدخل جماعة الشباب، من الضرائب غير الرسمية على الفحم، والتي تفرضها الجماعة على نقاط التفتيش الموضوعة على حواجز الطرق والموانئ، وهو ما مكنتها في إحدى قضايا حواجز الطرق، من أن تكسب ما بين 8 — 18 مليون دولار أمريكي سنويًا من تهريب الفحم في منطقة بادادي الصومالية، بينما وفرت تجارة الفحم وفرض

²⁰ راجع تقرير الموقع الإلكتروني لقناة 24 FRANCE الإخبارية، تحت عنوان (تقرير للأمم المتحدة يكشف عن تهريب فحم الصومال عبر إيران)، بتاريخ 13/10/2018، متاح على: <https://www.france24.com> ، مع البحث بالعنوان المذكور(بتصرف)

الضرائب على الموانيء لمنظمة الشباب، ما يقدر بنحو 38 – 56 مليون دولار أمريكي سنوياً، في ظل وجود صادرات فحم غير مشروعة قادمة من الصومال تقدر بحوالي 360 – 384 مليون دولار أمريكي سنوياً²¹ وتجدر الإشارة هنا إلى أن أحدث الأخبار المتداولة بشأن تجارة الفحم الصومالي، تؤكد ضلوع أطراف عديدة في توظيف هذه التجارة من أجل مصالح إقليمية ودولية في منطقة القرن الإفريقي والسوائل الصومالية، وهو ما تجيد جماعة الشباب استغلاله بمهارة للحصول على عوائد مالية فلكية وغير مسبوقة على حساب الاقتصاد الصومالي، الأمر الذي يساعد الحركة في تطوير ممتلكاتها من الأسلحة والمعدات العسكرية، ومن ثم تهديد الداخل الصومالي بال المزيد من الهجمات الدموية والانتقامية، وعلى سبيل المثال، قامت الحركة مؤخراً بفرض مبالغ مالية ضخمة على العديد من أصحاب مصانع الفحم، وخاصة في إقليم شibli السفلي جنوب الصومال، كما وضعت طوقاً أمنياً حول مناطق الغابات والأشجار الكثيفة في مناطق سيطرتها، لحمايتها من تجار الفحم وقطاعي الأشجار، رغبة منها في الحفاظ على هذه الكثافة من أجل إخفاء معداتها وعناصرها

ضد الغارات الأمريكية²²

²¹ انظر: تقرير(أزمة الجريمة البيئية)، مصدر سابق، ص 6 (بتصرف يسيراً)

²² راجع: نور جيدي، (تربي الأمن يلهب أسعار الفحم)، صحيفة الأناضول التركية، مصدر سابق(بتصرف)

أضرار ثلاثة

ورغم أنه تمت الإشارة إلى جملة الأضرار الناجمة عن تجارة الفحم في القارة الإفريقية عموماً، إلا أنه بتأمل هذه التجارة بالنسبة للصومال، نجد أنها تجسد الصورة الأوضح والأشد قسوة من حيث تحقيق تلك الأضرار، وهو ما يمكن رصده من خلال الآتي:

- أسممت تجارة الفحم — ولا تزال تسهم إلى الآن — في تهديد الأقاليم الصومالية بمجاعات مشابهة لمجاعة العام 2011، وذلك بعد أن تسببت هذه التجارة — وفق آخر الإحصائيات — في "قطع ما يقرب من 8.2 مليون شجرة بين عامي 2011 و2017، ما أدى إلى زيادة تدهور الأرضي وانعدام الأمن الغذائي والتعرض للفيضانات والجفاف"²³ وبتأمل الوضع الحالي، نجد أن ازدياد الأنشطة الداعمة لإنتاج وتجارة الفحم، يؤدي إلى حرمان الصوماليين من مناطق استقرارهم وأراضيهم بعد خلوها من الأشجار ومن الزراعة، كما يؤدي إلى تقليل المساحات المزروعة بالمحاصيل المهمة والرئيسية في البنية الاقتصادية والغذائية للصومال مثل الأرز، القطن، الموز، المانغو، بخور اللبن، والمحاصيل الحمضية، وأيضاً "قللت ممارسات إزالة الأشجار من التنوع البيولوجي نظراً لأن الأنواع

²³ المصدر السابق نفسه(يتصرف يسيرا)

التي تعتمد على أشجار السنط(شجرة يستهدفها منتجو الفحم

لجودتها وصلابتها)، لم تعد قادرة على الحياة بعد إزالتها²⁴

• تسهم أنشطة إنتاج الفحم وتجارته على مستوى الأقاليم

والمناطق الصومالية، وخاصة الأنشطة السرية وغير الشرعية

منها، في تهيئة أجواء مهددة للاستقرار المجتمعي، خاصة مع

ظهور ما يمكن تسميته بـ(صراع ثروة قبلي) يستهدف الاستفادة

القصوى والمتنامية من العوائد المالية السخية التي تدرها هذه

التجارة في مجتمع يبحث أفراده عن تأمين القبيلة عبر

الاقتصاد والمال؛ وبحسب تقارير أممية، فإن صادرات هذه

التجارة غير القانونية من الفحم " تمول مليشيات قبلية؛ مما

يمكن أن يتسبب في إشعال التوترات بين أمراء الحرب"²⁵

• تساعد أنشطة إنتاج وتجارة الفحم وفق ملامحها الغامضة

وعوائدها السرية المغربية في الصومال، على استقطاب أذرع

ومليشيات مسلحة جديدة أو متعددة في الميدان الصومالي؛

ومما يشير إلى إمكانية حدوث ذلك، ما تداولته بعض

المصادر بشأن إسهام تجارة وعوائد الفحم في إمداد جماعة

من أقدم الجماعات المسلحة في الصومال، وهي جماعة

(رأس كامبوني) المتواجدة في أقصى جنوب الصومال،

²⁴ راجع قيم وتقديرات برنامج الأمم المتحدة الإنمائي في الصومال، مصدر سابق(بتصرف يسir)

²⁵ راجع تقرير(نون بوست)، مصدر سابق(بتصرف)

بمركبات عسكرية حديثة تعينها على إحياء نشاطها مجدداً بالتعاون مع جماعة الشباب، هذا إلى جانب الصراخ والوعيل المتواصل للأمم المتحدة ومجلس الأمن عبر تقاريرهما الصادرة بشأن هذه التجارة في الصومال، والذي يؤكد مراراً وتكراراً على حقيقة لا مراء فيها، وهي أن هذه التجارة تدار بشكل سري لخدمة مصالح خاصة بجماعات العنف والتشدد، جنباً إلى جنب، مع خدمة مصالح لبعض الأطراف الإقليمية اللاعبة بقوة في الداخل الصومالي ومنطقة القرن الإفريقي²⁶

والخلاصة هنا، أن منظومة الفحم إنتاجاً وتصديراً، تلعب دورها السلبي المباشر والمعهود في القارة الإفريقية ككل، سواء من حيث النواحي الصحية والبيئية، أو من حيث النواحي المعيشية والغذائية، أو حتى من حيث النواحي الأمنية والسياسية، لكن تجارة وإنتاج الفحم الصومالي على وجه الخصوص، تكتسب مخاطر أخرى، نابعة من الوضعية الصومالية المعقدة والمتباينة في منطقة القرن الإفريقي؛ حيث أصبح الفحم في الصومال أكثر السلع المرغوبة لدعم اقتصاد الصراعات، إذ تحقق الميليشيات ملايين الدولارات سنوياً من عمليات تصدير غير شرعية، في حين يؤدي إنتاج الفحم في البلاد إلى تهديد ثلاثي كبير يشمل التدهور البيئي غير القابل

²⁶ المصدر السابق نفسه(يتصرف كبير)

للعلاج والصراع الدائم والاعتماد الواسع على سبل عيش غير
مستدامة"²⁷

استنتاجات

- منظومة إنتاج وتجارة الفحم العالمية تتكمش في الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية، بينما تفتح مسارات جديدة لها في دول القارة الإفريقية عبر استثمارات تعويضية قادمة من مناطق انحسار ذات المنظومة على المستوى الدولي.
- العوائد الاقتصادية لمنظومة إنتاج وتجارة الفحم في القارة الإفريقية، غير مجدية من حيث دعم الاقتصادات الوطنية، وذلك بالنظر إلى حجم الكوارث البيئية والصحية والمعيشية الناجمة عن هذه المنظومة، والتي تلتهم أية مميزات مالية قد يعتقد البعض بجدواها بشأن هذه النوعية من التجارة والإنتاج.
- منظومة الفحم في الصومال تتغوق في مخاطرها الأمنية والمعيشية والبيئية، على نظيرتها في باقي دول القارة، وذلك بالنظر إلى حجم التوظيف الميليشياتي لها من أجل تحقيق ضربات موجعة لاستقرار البلاد الداخلي عبر الهيمنة الاقتصادية والمالية على عوائد هذه النوعية من التجارة بطرق متوية وغير شرعية تهدف إلى ضرب اقتصاد البلاد والعبث بمقدرات الأمن الغذائي فيها.

²⁷ راجع قيم وتقديرات برنامج الأمم المتحدة الإنمائي في الصومال، مصدر سابق(بتصريح)

▪ إنتاج وتجارة الفحم، يهددان الأمن المائي الإفريقي والصومالي، ويقصان من مساحة الأرضي المزروعة بالمحاصيل الغذائية الرئيسية، كما يتسببان في العبث بالديموغرافيا السكانية عبر تصحير الأرض وتس溟 المياه وتوطين الطبقية بين الشرائح السكانية، إلى جانب توفير بيئة مهيئة دائماً لحدوث مجاعات مفاجئة ومدمرة بين الصوماليين والأفارقة.

توصيات

▪ التفعيل الجاد للتطبيقات الحديثة لخطط التنمية المستدامة وفق النظرة الدولية والعالمية الواردة في البنود الأممية؛ حيث "تشير التقديرات إلى أن التحول إلى استخدام مواد تتسق بالكافأة بين الصوماليين، قد يقلل استهلاك الفحم بنسبة 50 في المائة، بالإضافة إلى ذلك، قد يزيد استخدام أفران تتسق بالكافأة في معالجة الفحم وفعالية استعماله بنسبة 60 في المائة، الأمر الذي يؤدي إلى انخفاض عمليات قطع الأشجار بإجمالي نسبته 80 في المائة"²⁸

▪ تبني مشروعات بيئية داعمة لزيادة الرقعة الخضراء في الأقاليم والمدن والمناطق الريفية الصومالية، بشكل يحقق التوازن المطلوب في مواجهة عمليات قطع الأخشاب والأشجار

²⁸ راجع قيم وتقديرات برنامج الأمم المتحدة الإنمائي في الصومال، مصدر سابق

وتقليص المساحات المزروعة، جنباً إلى جنب، مع تفعيل خطط واعية بتتبع المناطق المأهولة بمناجم استخراج الفحم، للوقوف على الآثار السلبية الناجمة عن هذه المناجم، ومن ثم العمل على مواجهتها وعلاجها.

▪ تفعيل كافة القوانين المحلية الداعمة لمواجهة الاعتداء على الحياة البرية بكافة مكوناتها المتوازنة، وذلك عبر تطبيق سياسات جديدة يتم خلالها دعم التنسيق والتعاون بين كافة الهيئات والوزارات والقطاعات العامة والخاصة المعنية بتعزيز الحفاظ على الغطاء الحيوي والحد من إنتاج الفحم النباتي لضمان التنوع البيئي²⁹

▪ تنمية الوعي الشعبي والمؤسسي بمخاطر إنتاج الفحم وتجارته، وذلك عبر مد جسور التواصل بين شرائح المجتمع الصومالي من جهة، وحركات المناخ والعدالة البيئية وحقوق الأرض من جهة ثانية، هذا بالإضافة إلى إجراء بحوث استطلاعية للوصول إلى تقديرات كمية حقيقة وواقعية لتكلفة الاجتماعية الكلية لصناعة واستخراج الفحم وإنتاج الطاقة المولدة من خلاله، وهو ما سيساهم في وضع الحقائق في

²⁹ راجع: إدريس، عبد الرحمن، الصومال يعلن حرباً على صناعة الفحم حفاظاً على البيئة، تقرير شبكة الحياة الاجتماعية، مصدر سابق(بتصف)

نصابها ضمن هذا السياق بعيداً عن الخرص والتخمين

الهوامش والإحالات

- (1) انظر: طنطاوي، محمد محمد، الفحم صعوبات وتحديات، ورقة بحثية، منشورات وزارة الدولة لشؤون البيئة، مصر، ص 4، متاح على: <http://www.aun.edu.eg/arabic/society/Seminars/Coal.pdf> ، (بتصريح يسير)
- (2) راجع تقرير موقع(أرقام) السعودي تحت عنوان: أكبر الدول المنتجة للفحم وأكبر شركات التقبيب عنه، بتاريخ 2018/5/25 ، متاح على الرابط: <https://www.argaam.com/ar/article/articledetail/id/550447> ، (بتصريح يسير)
- (3) انظر: مقدمة(آشيم شتiner) وكيل الأمين العام للأمم المتحدة والمدير التنفيذي لبرنامج الأمم المتحدة للبيئة، تقرير(أزمة الجريمة البيئية)، منشورات برنامج الأمم المتحدة للبيئة، نيروبي/كينيا، وثيقة 137، ص 3، متاح على الرابط: https://gridarendal-website-live.s3.amazonaws.com/production/documents/:s_document/137/original/RRA_crimecrisis_flyer_AR_Web.pdf?1483646682 ، (بتصريح يسير)
- (4) راجع: نبيال الحايك، استيراد الفحم بديل بيئي وتجاري...والصومالي"الأجدود"، صحيفة الأخبار اللبناني، الخميس 10 آيار 2007، متاح على: http://akhbar.com/Archive_Local_News/193070 ، (بتصريح يسير)
- (5) انظر: غريغوري ريفاينون، كريزنا غوميز، مناجم أعمق: الآثار السلبية لصناعة الفحم في الجنوب العالمي على حقوق الإنسان، تقرير مركز القانون والعدالة والممجتمع(Dejusticia)، مركز موارد قطاع الأعمال وحقوق الإنسان، نوفمبر/تشرين الثاني 2015، ص 6، متاح على: <https://www.business-humanrights.org/sites/default/files/documents/Digging-Deeper-AR.pdf> ، (بتصريح يسير)
- (6) المصدر السابق نفسه، ص 10(بتصريح يسير)
- (7) انظر: تقرير(أزمة الجريمة البيئية)، منشورات برنامج الأمم المتحدة للبيئة، نيروبي/كينيا، وثيقة 137، ص 6، مصدر سابق(بتصريح يسير)
- (8) راجع تقرير(الخليج أونلاين) بتاريخ 2019/3/29 على الرابط: <http://khaleej.online/6ZrZdn> ، (بتصريح يسير)
- (9) انظر: غريغوري ريفاينون، كريزنا غوميز، مناجم أعمق: الآثار السلبية لصناعة الفحم في الجنوب العالمي على حقوق الإنسان، تقرير مركز القانون والعدالة والممجتمع(Dejusticia)، مصدر سابق، ص ص ، 21 ، 22
- (10) المصدر السابق نفسه، صفحات متعددة، (بتصريح يسير)

³⁰ انظر: غريغوري ريفاينون، كريزنا غوميز، مناجم أعمق: الآثار السلبية لصناعة الفحم في الجنوب العالمي على حقوق الإنسان، مصدر سابق(بتصريح كبير)

- (11) انظر : النداوي، مهند عبد الواحد، الاتحاد الأفريقي وتسوية المنازعات.. دراسة حالة الصومال، طبعة دار الشروق المصرية، 2015، ص 80،(بتصرف يسير)
- (12) راجع قيم وتقديرات برنامج الأمم المتحدة الإنمائي في الصومال، بتاريخ 17/4/2013، على الرابط: <http://www.arabstates.undp.org/content/rbas/ar/home/presscenter/pressreleases/2013/04/17/breaking-the-cycle-of-charcoal-production-in-somalia.html> (بتصرف)
- (13) راجع: المركز الإقليمي للطاقة المتجددة وكفاءة الطاقة، تبوب(الصومال)، متاح على: <http://www.rcreee.org/ar> ، مع البحث بالتبوب المذكور(بتصرف يسير)
- (14) انظر : النداوي، مهند عبد الواحد، الاتحاد الأفريقي وتسوية المنازعات...، مصدر سابق، ص 80(بتصرف)
- (15) راجع: نور جيدي، (تردي الأمن يلهم أسعار الفحم)، صحيفة الأناضول التركية، بتاريخ 23/4/2019، متاح على: <https://www.aa.com.tr/ar> ، مع البحث بالعنوان المذكور(بتصرف)
- (16) المصدر السابق نفسه
- (17) راجع: إدريس، عبد الرحمن، الصومال يعلن حرباً على صناعة الفحم حفاظاً على البيئة، تقرير شبكة الحياة الاجتماعية ، بتاريخ الخميس 4 أكتوبر 2018، متاح على: <http://www.hayatweb.com/article/279541> (بتصرف يسير)
- (18) مجموعة أمنية مسؤولة عن مباشرة تطبيق العقوبات الدولية المفروضة من الأمم المتحدة ومجلس الأمن على الدولتين
- (19) راجع تقرير(نون بوست) على الرابط: <https://www.noonpost.com/content/3955> ، (بتصرف)
- (20) راجع تقرير الموقع الإلكتروني لقناة 24 FRANCE الإخبارية، تحت عنوان (تقرير للأمم المتحدة يكشف عن تهريب فحم الصومال عبر إيران)، بتاريخ 13/10/2018، متاح على: <https://www.france24.com> ، مع البحث بالعنوان المذكور(بتصرف)
- (21) انظر: تقرير(أزمة الجريمة البيئية)، مصدر سابق، ص 6 (بتصرف يسير)
- (22) راجع: نور جيدي، (تردي الأمن يلهم أسعار الفحم)، صحيفة الأناضول التركية، مصدر سابق(بتصرف)
- (23) المصدر السابق نفسه(بتصرف يسير)
- (24) راجع قيم وتقديرات برنامج الأمم المتحدة الإنمائي في الصومال، مصدر سابق(بتصرف يسير)
- (25) راجع تقرير(نون بوست)، مصدر سابق(بتصرف)
- (26) المصدر السابق نفسه(بتصرف كبير)
- (27) راجع قيم وتقديرات برنامج الأمم المتحدة الإنمائي في الصومال، مصدر سابق(بتصرف)
- (28) راجع قيم وتقديرات برنامج الأمم المتحدة الإنمائي في الصومال، مصدر سابق
- (29) راجع: إدريس، عبد الرحمن، الصومال يعلن حرباً على صناعة الفحم حفاظاً على البيئة، تقرير شبكة الحياة الاجتماعية، مصدر سابق(بتصرف)
- (30) انظر: غريغوري ريفلين، كريزنا غوميز، مناجم أعمق: الآثار السلبية لصناعة الفحم في الجنوب العالمي على حقوق الإنسان، مصدر سابق(بتصرف كبير)

انتهى